ديسمبر/كانون الأول 2016

امكانيات تلاشي تنظيم الدولة الإسلامية

جلال زين الدين

ملخص

يناقش البحث حتمية تلاشي تنظيم الدولة، وينطلق البحث من معطيات علمية فولادة تنظيم الدولة، وتمدده لم يكن مجرد صدفة أو طفرة إنما نتيجة طبيعية لأمراض مزمنة ابتليت بها الأمة. وربما الغرابة تكمن في سرعة تمدده بهذا الشكل السرطاني. وهذا طبيعي أيضاً في ظل الانقسامات الحادة، والتغيرات السريعة التي تمر بها المنطقة. ولدى التمعن في الأسباب التي أدت لظهور التنظيم وساعدته وتساعده حتى الآن، يؤكد البحث أن التنظيم لزوال، ومن جملة الأسباب التي تبشر بتلاشي داعش:

داخليّاً، فقد التنظيم جُلّ عناصره المؤمنين به عقائدياً. كما لم ينجح التنظيم باكتساب الشارع السني كحاضنة شعبية تؤمن له مقاتلين إلى ما لا نهاية. ومعظم المنخرطين الحاليين في صفوفه من الأنصار هم أصحاب مصالح نفعية لا عقدية، وبذلك يخسر التنظيم مع الأيام أبرز مكامن قوته المتمثلة بشراسة المقاتلين، والاستعداد للتضحية.

وخارجيّاً، فقد أدى التضييق الخارجي، وإحكام إغلاق الحدود لنضوب صنف (المهاجرين) الذين كان لهم الدور الأبرز في سيطرة التنظيم في سورية، وإضفاء الشرعية على دولة (الخلافة) التي لا تعترف بالحدود والأعراق.

ويعد دعم البديل الوطني غير الطائفي أبرز أسس إنهاء داعش. ولن يحدث ذلك دون دعم قوى وطنية تحظى بقبول شعبي. ولم يتحقق هذا الأمر حتى الآن. وهنا تُطرح إشارات استفهام حول وجود نيّة حقيقية لإنهاء التنظيم.

ويبقى تجفيف منابع الدعم بالمال والسلاح خطوة مهمة للقضاء على التنظيم، فمعلوم أن التنظيم يميل للسيطرة على كل ما يدرُّ له أموالاً ضخمة. فقد انتقل من طور التنظيم إلى طور "الدولة"، وذلك يتطلب مالاً. كما أن معاركه تحتاج لسلاح وذخيرة وبكميات كبيرة، وقد قدم الأسد والمالكي هذه الخدمة للتنظيم مراراً.

هذه بعض عوامل تؤدي لزوال داعش، بعضها تحقق، وبعضها في طور التحقق، وقسم آخر يُنتظر تحققه. ويصطدم البحث بعدم وجود إحصاءات وأرقام دقيقة، مما يدفعه إلى أن يعتمد في جزء منه على معلومات من ناشطين ميدانيين، وشهادات من مقربين من التنظيم أو عناصر التنظيم نفسه بشكل غير مباشر.

يُعد تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) واحداً من أخطر التنظيمات في منطقة الشرق الأوسط، وربما في العالم أجمع. ويرجع ذلك لعدد من العوامل الموضوعية؛ أبرزها القوة العسكرية، والمادية، والتخطيط، والطاعة العمياء، والاستعداد للتضحية. وقد مكّنته تلك العوامل من السيطرة على مساحات جغرافية واسعة من العراق وسوريا، تعادل مساحة بريطانيا. ووصل التنظيم إلى حدّ إعلان قيام دولة إسلامية لها مؤسساتها العسكرية والقضائية والمدنية، ومضى في ترسيخ "الدولة الإسلامية" كدولة وليدة في عالمنا المعاصر.

وبدأت هذه الدولة الوليدة سريعاً رغم عوامل القوة بالتقلص والانكماش قبل اكتمال بناء المؤسسات، وقبل ممارستها لمفهوم الدولة الحديثة. ويبدو أنّ هذه الدولة ذاهبة للتلاشي والزوال خلافاً لشعارها "باقية وتتمدد". وفي أحسن أحوالها قد تعود لتنظيم مُلاحق في البراري والقفار كما كان الوضع زمن الاحتلال الأمريكي للعراق.

ويستند الرأي القائل بحتمية تلاشي التنظيم على جملة أسباب؛ موضوعية داخلية وخارجية. فالعبرة ليست دائماً بالمساحة وسرعة السيطرة، فالتنظيم سيطر على هذه المساحات الشاسعة خلال فترة زمنية قصيرة وصلت فيه الدولتان السورية والعراقية أوج مراحل الضعف والانقسام، فالنظام في سوريا فقد السيطرة على معظم الأراضي السورية، والقرار العراقي مصادر من إيران والميلشيات الشيعية. فتمدد التنظيم لا يكمن بقوته، وحسن تنظيمه وحسب؛ بل في ضعف الآخرين وتشرذمهم.

فقدان الحاضنة الشعبية أولى خطوات الانحسار

تُعدّ "الحاضنة الشعبية" في العراق وسوريا أبرز عامل يدل على قرب فناء ما يسمى "دولة الخلافة" وتلاشيها. وليس المقصود بالحاضنة الشعبية هنا الشعب القاطن في المناطق الخاضعة لسيطرته وحسب؛ بل المقصود أيضاً القوى الجهادية والوطنية والثورية في سوريا والعراق. إذ عَمِلَ التنظيم على محاربة الجميع والتحكم بالقرار منفرداً، ووصل الأمر لإعلان الحرب على الفصائل الإسلامية والوطنية على حدٍّ سواء، واتهام الآخر أياً كان بالكفر والردة، وذلك منذ أيام "أبو حمزة المهاجر" في العراق 2006-2010، الذي أدت سياساته لولادة ما عُرفَ بالصحوات التي كان لها دور كبير في القضاء على تنظيم الدولة الإسلامية في العراق حينها.

ولم يتعلم التنظيم من أخطائه، واستمرّ بالنهج ذاته بدعوى الحفاظ على وحدة صف المجاهدين والجهاد تحت راية واحدة. إذ حلّ البغدادي عام 2013 فرع تنظيم القاعدة في سوريا؛ جبهة النصرة. ليُحدِث شرخاً عميقاً في صفوف الجهاديين من جهة، وانهياراً في شعبية تنظيم الدولة من جهة ثانية. شعبيّة كسبها التنظيم بداية باعتباره فصيلاً داعماً للثورتين السورية والعراقية ضد النظامين السوري والعراقي، ومتعاوناً مع الفصائل والقوى الوطنية، فالجولاني أمير جبهة النصرة (فتح الشام حالياً) التي قامت بعمليات كبيرة ضد النظام السوري، بايع الظواهري في 24 كانون الثاني/يناير 2012، وفي 10 نيسان/إبريل أصدرت المنارة البيضاء التابعة لجبهة النصرة خطاباً جدد الجولاني فيه بيعته للظواهري، ورفض أمر البغدادي. وتعمّق الشرخ مع مرور الأيام، وحصر تنظيم الدولة جهوده في السيطرة على المناطق المحررة، وقمع صوت الثوار. فبدأ مبكراً بسلسلة طويلة من عمليات الاغتيال والخطف للقادة والناشطين الثوريين لتصل القطيعة أوجها أواخر عام 2013 بداية 2014.

هذه الممارسات جعلت تنظيم الدولة وخلافته مرفوضين لدى السواد الأعظم من السوريين. فبدلاً من أن يكون التنظيم عوناً للثوار وناصراً للشعب في ثورته ضد الأسد كما أظهر ذلك بداية، وحقق من خلاله بعض المكاسب الشعبية؛ ركّز جهوده على تحرير المحرر، فسيطر على مناطق الثوار الممتدة من شمال حلب وشرقها، غربي سوريا حتى البوكمال في الشرق.

وزاد الرفض الشعبي بعد أن عايش الشعب ممارسات التنظيم على الأرض. وأدى ذلك الرفض الشعبي لانهيار أبرز مقومات الدولة "الشعب"، فبدأت عمليات هجرة ونزوح غير مسبوقة من مناطق التنظيم، حتى وصل عدد سكان الفلوجة لحوالي

70 ألفاً في أيامها الأخيرة[1] بعد أن كان 275 ألفاً تقريباً، ونصف مليون مع الأقضية والنواحي وفق إحصاء 2011 الذي قامت به وزارة التخطيط العراقية. وتقدم هذه المدينة (الفلوجة) مؤشراً واضحاً لحال تنظيم الدولة، سواء في العراق أو سوريا، وتفنّد الزعم بأنّ السنة يحتضنون تنظيم الدولة. فالفلوجة التي عجز الأمريكيون عن كسر شوكتها؛ مزّقها التنظيم قبل ميليشيات الحشد الشعبي. فهجَّرَ علماءَها وحارب ثوارَها بدعوى توحيد الصف. ولا يغيب هنا معاملته أبناء الأقليات معاملة مواطنين من الدرجة الثانية، أو عبيد كالإيزيديين الذين أخذ عدداً من نسائهم سبايا، والمسيحيين الذين فرض عليهم الجزية، وغيرها من أمور ولّدت حاضنة شعبية لأية قوة معادية للتنظيم عند الأقليات، وكثير من أبناء المنطقة.

نضوب الأنصار يحول دون الاستمرار

يعدّ نضوب عنصر الأنصار أخطر ما يهدد التنظيم، فالتنظيم يعيش فترة انحدار شعبي بعد أن وصل عدد مقاتليه عام 2014 لثلاثين ألفاً من الأنصار[2]، ويعاني التنظيم حالياً نقصاً في أعداد منتسبيه الجدد ولا سيما بعد ممارسته السلطة. وسيزداد النقص حدةً بمجرد ظهور بوادر حلّ سياسي في سوريا والعراق. وذلك خلافاً لما يعتقده كثيرون من أنّ تراجع أنصاره يعود للأعمال العسكرية ضدّه. فالتراجع الرئيس سببه ممارسة السلطة بصورة سيئة لا ضربات التحالف. ونزعم من خلال المشاهدات والأرقام أن ضربات التحالف -ولا سيما في بدايتها- جلبت أنصاراً للتنظيم على مستوى الأفراد والمجموعات سواء في سوريا والعراق أو خارجهما، فقد بايع لواء داوود القوي من محافظة إدلب التنظيم في 8 حزيران/يونيو2014، وبايعته عشرات الكتائب التي انشقت عن حركتي جبهة النصرة وأحرار الشام، وبايعته كثير من التنظيمات الجهادية في دول العالم بزعم حمل تنظيم الدولة واجب حماية أهل السنة والجماعة، ومنها: أنصار بيت المقدس في مصر في تشرين الثاني/نوفمبر2014، جماعة بوكو حرام في نيجيريا في آذار/مارس 2015، مجلس شورى شباب الإسلام في 22 حزيران/يونيو2014، أنصار الشريعة في تونس في تموز/يوليو 2014[3].

وشكّل عام 2016 نكسة كبرى للتنظيم، فخسر التنظيم الفلوجة في العراق، وتُشَنُّ حملة لطرده من الموصل، وفي سوريا خسر تدمر في 27 آذار/مارس، ومنبج في 13 آب/أغسطس، وجرابلس في 24 آب/أغسطس، والريف الشمالي لحلب كاملاً بما فيه قرية "دابق" ذات الرمزية الدينية. وباتت مراكز الانتساب التي كانت تزدحم بالمتطوعين خاوية، بعدما كان المرء يحتاج تزكية حتى يُقبل عنصراً في صفوف التنظيم. وبتنا نرى حالات هرب للعناصر المنتسبين من أرض الخلافة، مثل كريم ومحمد الرفدان أولاد عم عامر الرفدان القائد العسكري المشهور، في آب/أغسطس 2016. فضلاً عن مئات العناصر الذين أمّن الثوار انشقاقهم في ريف حلب الشمالي وفق ما صرح به قادة في "فيلق الشام".

تجفيف منبع المهاجرين كَسَرَ العمود الفقري للتنظيم

لا يقلّ جفاف منبع المهاجرين أثراً عن نُضُوبِ الأنصار، فقد شكل المهاجرون العرب والأجانب العمود الفقري للتنظيم في سوريا بدايةً، حيث وصل عددهم إلى عشرين ألف مقاتل في سوريا وحدها[4]. وذكرت تقارير المركز الدولي لدراسة التطرف والعنف السياسي أنه من شهر تشرين الأول عام 2014 إلى بداية عام 2015، انضم خمسة آلاف مقاتل معظمهم أجانب. فقد وصل عدد الفرنسيين إلى 1200 والألمان نصفهم، ووصل عدد السعوديين إلى 2500 مقاتل. وانعدم لاحقاً التحاق أفواج جديدة من المهاجرين بصفوف التنظيم، ولا سيما بداية 2016. وبعد أن كان معدل انضمام الأجانب

---

[1] مكتب العبادي، نشر في موسوعة العراق، 22 حزيران/يونيو 2016:
http://www.faceiraq.net/inews.php?id=4886784

[2] المرصد السوري لحقوق الإنسان، عناصر داعش يتجاوزون 50 ألف مقاتل في سوريا، 19 آب/أغسطس 2014.

[3] موقع تقرير 24، هذه هي المجموعات التي بايعت داعش حول العالم، ميسون خالد، 15 آذار/مارس 2015.

[4] المرصد السوري لحقوق الإنسان، عناصر داعش يتجاوزون 50 ألف مقاتل في سوريا، 19 آب/أغسطس 2014.

للتنظيم 1500-2000 خلال هذه المدة سابقاً؛ تراجع إلى 200 مقاتل[5]. ومع مقتل معظمهم فَقَدَ التنظيم قوَّته الضاربة، وتحوّل الأجانب من داعم لعبء؛ فالولايات والتنظيمات التي أعلنت بيعتها وولاءها للبغدادي فقدت التعاطف الشعبي في بلدانها، كما فقد التنظيم في سوريا والعراق ذلك الزخم العاطفي عندما رفع شعار الدفاع عن السنة المظلومين، ولم تعد ثمة فائدة من ولاية (ليبيا) التي عطّلت مشروعاً إسلامياً في بلد تخلّص من الديكتاتورية حديثاً، ولا من بيعة تنظيمات (أنصار الشريعة وغيرها في اليمن) التي توجّه ضرباتها لحكومة وطنية تقف بوجه مشروع الحوثي الطائفي، ولا من تفجير مطار في تركيا أو مسجد شيعي في السعودية أو الكويت. لقد أسهمت هذه البيعات والأعمال برفع معنويات مقاتلي التنظيم في العراق وسوريا آنياً، ولكنّها أفقدته تعاطف الشعوب الإسلامية لاحقاً.

إن اقتصار "جهاد" التنظيم على البلاد الإسلامية التي تشهد توترات ومشاكل وانقسامات سياسية أو عسكرية كالصومال ونيجيريا؛ ترك أثراً سلبياً عليه، وحوّله في نظر المسلمين من "دولة الخلافة الإسلامية" إلى تنظيم إرهابي متطرفٍ يصطاد بالماء العكر، ويعطل الجهاد، ويشق الصفّ وفق رأي كثير من المنظرين للتيارات الجهادية الإسلامية، ومنهم "أبو قتادة الفلسطيني" و "أبو محمد المقدسي".

عداء القوى الجهادية والثورية والمحلية

مع خسارة الحاضنة الشعبية على مستويي العامة والنخبة، وجفاف منبع المهاجرين؛ يواجهُ التنظيمُ خطرَ التنظيمات الإسلامية المحلية والقوى الوطنية والقوى المحلية. فالتنظيم -ولا سيما في سوريا- يدرك أن خصمه الحقيقي الذي يهدد وجوده يتمثل في هذه القوى، لا في النظام السوري أو التحالف الدولي. ففي الوقت الذي يُكثِّفُ التحالفُ من ضرباته؛ يركز التنظيم على استهداف قادة هذه القوى بالعمليات الانتحارية والعبوات الناسفة، كاستهداف 14 عنصراً من جيش الإسلام، واستهداف الثوار بتفجرين خلال شهر واحد عند معبر أطمة، مما أوقع عشرات القتلى في صفوف عناصر الجيش الحر. إن هذه التنظيمات الإسلامية (جيش الإسلام، أحرار الشام، جبهة النصرة) توفّر بديلاً لعناصر التنظيم المنشقين. وقد تجاوز عدد المنشقين في 2016 قرابة 500 مقاتل.

كما نجحت قوى محلية (كردية) بمساعدة قوى دولية بطرد تنظيم الدولة من مناطق ذات غالبية كردية (عين العرب، رأس العين، تل حميس، القامشلي)، ومن مناطق ذات غالبية عربية (الشدادي، صرين، تل أبيض، سلوك، سد تشرين، ريف منبج، منبج المدينة). وثمة قوى وطنية كالجيش الحر ما زالت تخوض صراعاً شرساً مع التنظيم سواء في درعا أو وريفي دمشق وحلب والقلمون. وهذه القوى سيكون لها الدور الأبرز في القضاء على التنظيم في نسخته السورية، فهي تشكل القوة المقبولة شعبياً، وذلك واضح في ريف حلب الشمالي الذي يشهد عودة أهله بعد طرد التنظيم منه.

تجفيف منابع السلاح والمال

ما يُهدِدُ تنظيم الدولة بالزوال إضافة لتجفيف منبع المهاجرين عبر تشديد الرقابة الحدودية مع تركيا؛ تجفيف مصادر التمويل العسكرية (السلاح، الذخيرة)، والمصادر الاقتصادية. فتمدد التنظيم صيف 2014 في العراق وسيطرته على الموصل في 10 حزيران/يونيو واستيلاؤه على سلاح فِرق كاملة في الجيش العراقي وذخيرتها؛ ترك إشارات استفهام كبيرة. إذ اعترف العبادي بأن قوات الأمن العراقية فقدت 2300 عربة هامفي مدرعة Humvee، كما استولى التنظيم على 40 دبابة و74 ألف رشاش و52 مدفع هاوتزر Howitzer متحرك[6]. وغير ذلك كثير من أسلحة وذخائر تسلح جيشاً كاملاً.

---

[5] موقع تقرير 24، ماهي الدول التي جاء منها عناصر داعش، 10 شباط/فبراير 2015.

[6] الأسلحة التي غنمها داعش من الجيش العراقي، صحيفة الحياة، 3 حزيران/يونيو 2015:

http://www.alhayat.com/m/story/9399713

والأمر الذي رجّحَ نظرية التسليم؛ هو عدم خوض أية معركة في مدينة كبيرة كالموصل رغم هذا السلاح ووجود 30 ألف مقاتل من الجيش العراقي. وقد حدث السيناريو ذاته في الرمادي، رغم وجود عشرة آلاف مقاتل، ليغنم التنظيم مزيداً من السلاح والذخيرة. وتتابعت عقبها عمليات السيطرة بالاستفادة من السلاح والذخيرة. وقبل ذلك سيطر التنظيم على مطار الطبقة والفرقة 17 واللواء 93 في سوريا، وحصل التنظيم في ذلك الصيفِ على تمويل عسكري تَعجزُ عنه كثير من الدول.

وكانت السيطرة على تدمر السورية شبيهة بالسيطرة على الموصل، إذ مكّنت التنظيم من السيطرة على ثاني أكبر مستودعات الجيش السوري، والتي لم تُقصف عند فقدان السيطرة عليها.

ولا يقل الدعم المالي أهمية عن الدعم العسكري المقدم، إذ استحوذ التنظيم على خمسمئة مليون دولار في بنك الموصل، وسيطر على حقول النفط والغاز في سوريا والعراق، حيث وصل إنتاج دير الزور وحدها إلى 40 ألف برميل يومياً. ناهيك عن حقل الجبسة الذي يضم 500 بئر، وحقول القيارة قرب الموصل وغيرها كثير.

وغدا اقتصاد التنظيم يفوق اقتصاديات كثير من الدول. وإذا علمنا أن ميزانيته تصرف على الجانب العسكري دون وجود عمليات تنمية يُنفق عليها كباقي الدول؛ أدركنا تأثير الاقتصاد الذي مكّن التنظيم من تجنيد آلاف المقاتلين. فقد دفع التنظيم لعناصره رواتب سخية تعادل أضعاف ما يدفعه النظام السوري لجنوده. فانضمت أفواج من المرتزقة ولا سيما بعد انتشار البطالة، وندرة فرص العمل. إن تجفيف هذه المنابع العسكرية والمالية مؤخراً أصاب التنظيم في مقتل. فقد كشفت بيانات لشركة آي إتش إس الأمريكية للأبحاث أن إيرادات التنظيم تراجعت بنحو 30%، من 80 مليون دولار في منتصف 2015 إلى 56 مليون دولار في آذار 2016[7]، وبدا أثر تجفيف منابع التسليح والمال واضحاً بانحسار التنظيم، وفقدانه زمام المبادرة واقتصاره في معظم عملياته على الدفاع عبر المفخخات.

نزف النخبة على مستوى القادة والمقاتلين

ولعل فقدان "النخبة" يُعدّ أبرز العوامل المباشرة لنهاية التنظيم وتلاشيه، وللنخبة مستويان؛ نخبة القيادة، ونخبة المقاتلين. حيث فَقَدَ التنظيم 39 من أصل 43 ممن أسسوا التنظيم[8]. ويشمل مقتل القادة من قتلوا في المعارك الكثيرة، أو في عمليات القصف مثل "أبو علي الأنباري" و "أبو سياف التونسي" و "حجي بكر" في شمال حلب. و "أبو عبد الرحمن البيلاوي"، و "أبو مسلم التركماني" ، و "أبو جرناس" والي نينوى، و "أبو أسامة العراقي" والي البركة، وعمر الشيشاني (تارخان بانيرا شفيلي) الذي قتل في تموز/يوليو 2016، والذي كان بمثابة وزير دفاع التنظيم، و "أبو محمد العدناني" (طه صبحي فلاحة) المتحدث الرسمي باسم التنظيم، الذي قتل في 30 آب/أغسطس 2016، و "أبو محمد الفرقان" (وائل عادل حسن سلمان الفياض) وزير الإعلام، الذي قتل في 7 أيلول/سبتمبر 2016، وغيرهم كثير.

كما خسر التنظيم معظم قوات النخبة في معارك عين العرب التي مُني فيها بهزيمة منكرة، حيث شكّلت نقطة تحوّل كبيرة في سوريا. وخسر قبل ذلك أكثر من 100 من قوات النخبة في معارك مطار الطبقة وغيرها. وتكمن أهمية قوات النخبة بإيمانها العقائدي واستعدادها للتضحية. فهذه النخبة رغم عددها القليل هي من حققت الانتصارات للتنظيم ومكّنته من التمدد خلافاً للجيل الثاني الذي انتسب لاحقاً للتنظيم. فكثير من أفراد الجيل الثاني انتسب طمعاً بالشهرة والسلطة والمال، وهذا ما يفسر انسحابات التنظيم وهرب قياداته كما حدث مؤخراً في منبج، إذ فرّ الأمراء الأمنيون قبل بدء المعركة، وذلك كان مستحيل الوقوع في جيل النخبة الأول.

---

[7] انهيار الامبراطورية المالية لداعش، موقع مبتدا، 17 تموز/يوليو 2016:
http://www.mobtada.com/news_details.php?ID=488602

[8] الخبير هاشم الهاشمي، موقع عربي 21 تحت عنوان، 39 من أصل 43 قيادياً أسسوا الدولة قتلوا وقبضتها تتآكل، 29 حزيران/يونيو 2016.

الصراع بين الأمنيين والشرعيين

يدرك من يعرف خفايا تنظيم الدولة أنَّ التنظيم مزيج غير متماسك، خلافاً لما يظهره الإعلام. فالصراعات الداخلية تهدد بتفتيت التنظيم من الداخل، وتتشعب هذه الصراعات. فمنها الصراع بين المهاجرين والأنصار، ومنها الصراع بين الأمراء، ومنها التحزّب للمناطق. ولكن يبقى الصراع الأبرز بين الأمنيين والشرعيين؛ لأنه ينسف مفهوم "الدولة الإسلامية" التي يطمح التنظيم لها من أساسها.

يحاول الشرعيون ضبط المؤسسات كلها بميزان الشرع الإسلامي، في حين يفكّر الأمنيون والأمراء النافذون بعقلية أمنية أبعد ما تكون عن الشرع. ويرجع ذلك إلى الخلفية البعثية الأمنية، فمعظم القيادات في التنظيم تعود للجيش العراقي السابق. وقد وصل الخلاف حدّ إراقة الدماء، حيث أقدم الأمنيون على إعدام "أبو عبد الرحمن المصري" الخطيب المشهور في مدينة الباب منتصف 2014، وخمسة من العلماء لاعتراضهم على إعلان الخلافة. ولم يشفع لهم قتالهم الثوار إلى جانب التنظيم. وأجرى التنظيم إعدامات كثيرة لشرعيين بتهم عدة، منها إعدام الشرعي "أبو عبد الله الكويتي" أيلول/سبتمبر 2015، في مدينة الميادين التابعة لدير الزور بتهمة العمالة للمخابرات البريطانية.

ناهيك عن تيار التكفيريين، فقد يكون غريباً أن نعرف أنّ التنظيم شنّ حملة واسعة على من سماهم "التكفيريين" داخل صفوفه بدعوى غلوّهم بتكفير المسلمين. وابتداعهم ما يسمى "التكفير بالتسلسل"، فالدولة القوية التي زعم التنظيم بناءها، كانت أشبه ببيت العنكبوت، يقتل أهل بيتها بعضهم البعض الآخر.

ضربات التحالف

جاءت ضربات التحالف لتعزز حتمية زوال تنظيم الدولة، حيث أدّت 13 ألف طلعة جوية إلى تقلص مساحة الأراضي التي يسيطر عليها التنظيم إلى النصف. ففي العراق فقد التنظيم السيطرة على سنجار، الممر الحيوي بين الموصل والرقة، كما فقد السيطرة على تكريت والرمادي وبيجي وصلاح الدين، ومؤخراً الفلوجة وقاعدة القيارة قرب الموصل. وفي سوريا انتزعت قوات الحماية الكردية رأس العين وتل حميس وعين العرب وسد تشرين وصرين وتل أبيض، ومدناً تُعد معاقل للتنظيم كالشدادي وسلوك ومنبج. كما خسر تدمر والريف الشمالي لحلب، وذلك كله بفضل ضربات التحالف الدولي وغيره. إذ لم تخض القوات الكردية حقيقة قتالاً مباشراً مع التنظيم، وخلافاً لما تذكره مصادر التنظيم عن قتلاه؛ فإن الخسائر البشرية في صفوفه كبيرة.

ففي الأشهر الخمسة الأخيرة، من أيار/مايو إلى أيلول/سبتمبر، فقد التنظيم في معارك منبج والراعي وجرابلس وريف حلب الشمالي أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل وفق شهادات من داخل التنظيم. ومثال ذلك مقتل قرابة 500 من أصل 1000 مقاتل من بلدة "جديد العكيدات" البالغ عدد سكانها 25 ألفاً، خلال عامين. وكان من أبرز المقتولين "عامر الرفدان" والي دير الزور السابق. وفي ريف دير الزور الغربي قتل أكثر من مئة مقاتل من أصل 350، وأعدم التنظيم عدداً من أمنييه في هذه المنطقة.

ولا يختلف الوضع في ريف حلب، ففي منطقة المسطاحة في ريف منبج شرقي حلب قتل 25 منتسباً من أصل 60، وفي محافظة الحسكة لم يبقَ مع تنظيم الدولة أكثر من 150 عنصراً من أصل 300 سابقاً، وفي ناحية مركدة البلدة الوحيدة التي لا يزال يحكمها التنظيم في ريف الحسكة لم يبقَ إلا 40 عنصراً من 80 منتسباً. وتوقف الانتساب بشكل شبه كلي في هذه المناطق المختلفة، ومع كل يوم يُقتل المزيد من العناصر بطائرات التحالف أو المعارك.

رحيل الأنظمة الطائفية بداية رحيل التنظيم

ولِد تنظيمُ الدولةِ وتمدّدَ مستثمراً الظروف الموضوعيّة في سوريا والعراق. ففي العراق تمّ تهميشُ المكون السني، وارتهن قرار العراق السياسي لسلطة الولي الفقيه في إيران، وفي سوريا أخذ النظامُ الثورةَ السوريةَ نحوَ منعطفٍ طائفي خطير عندما استعان بميليشيات طائفية من لون معينٍ من لبنان والعراق وشرق آسيا لقمع ثورة الشعب السوري، فوفّرَ المالكي وبشارُ الأسد بيئةً خصبة للتنظيم، وعزف التنظيم على وتر الطائفية، وأجاد الزراعة في هذه البيئة الطائفية المشحونة بالعداء. لقد تحوّل الصراع من صراع سياسي لصراع طائفي أخذ صفة الصراع من أجل البقاء.

إن رحيل الأنظمة ذات الصبغة الطائفية سيفقد التنظيم حتماً أهمّ أعمدته عند انهيار النظامين السوري والعراقي، فهما من يشكّل المبرر المنطقي لبقاء تنظيم الدولة. وقد بدأ العراقيون يعون هذه الحقيقة. ولكنهم ما زالوا مكبّلين بقيود كثيرة، ورغم تلك القيود تتصاعد وتيرة الرفض الشعبي السني والشيعي لمنظومة المحاصصة الطائفية والتبعية لإيران. وما المظاهرات التي تشهدها بغداد وارتفاع الأصوات الوطنية والمطالبة بمحاسبة الفاسدين؛ إلا بداية. وينسحب الأمر ذاته على سوريا، فالجميع مُوقنٌ أن الحلَّ الحقيقي يبدأُ بزوال النظام الحالي، وقيامِ حكومةٍ وطنيةٍ ترعى مصالح الشعب بمكوناته كلها. وإن حصل هذا التحول؛ سيفقد التنظيم أهم مسوّغات وجوده، وسيكون خطوة مهمة في طريق تلاشيه.

إن ما سبق يُعدّ أبرز العوامل التي تؤكد تلاشي تنظيم الدولة ونهايته كدولة. ويبقى وجوده الحالي مرهوناً بغياب المشروع الوطني الجامع في سوريا والعراق. فهذه الحالة الطارئة "تنظيم الدولة" لا يمكن أن تزول مهما توفّرت العوامل المساعدة ما لم تذهب الحالة الطارئة التي وُلِد فيها وترعرع. التنظيم الذي ولد في ظلّ الاحتلال الأمريكي لن يزول في ظل الاحتلال الإيراني، ومن تمدّد مستغلاً ظلم الأسد لن يتلاشى في حال بقائه. إن ما ذكرناه من عوامل يؤكد حتمية الزوال في حال وجود سلطة رشيدة تفتح المجال للشعوب لممارسة حرياتها، واختيار من تريد بعيداً عن المحاصصات الطائفية والعرقية والمناطقية.

عن الكاتب

جلال زين الدين كاتب صحفي وباحث سوري.

بيان المهمة

"مبادرة الإصلاح العربي" مؤسسة بحثية رائدة للبحوث الفكرية المستقلة، تقوم، وبشراكة مع خبراء من المنطقة العربية وخارجها، باقتراح برامج واقعية ومنبثقة عن المنطقة من أجل السعي إلى تحقيق تغيير ديمقراطي. تلتزم المبادرة في عملها مبادئ الحرية والتعددية والعدالة الإجتماعية. وهي تقوم بالأبحاث السياسية، وتحليل السياسات، وتقدم منبراً للأصوات المتميّزة.

- **ننتج** بحوث أصيلة يقدمها خبراء محليون، ونتشارك مع مؤسسات عربية ودولية لنشرها.
- **نشجع** الأفراد والمؤسسات على القيام بتطوير رؤيتهم الخاصة للحلول السياسية.
- **نعبئ** الأطراف المعنية لبناء تحالفات من أجل إنجاز التغيير.

هدفنا أن تشهد المنطقة العربية صعود وتنمية مجتمعات ديمقراطية عصرية.

تأسست "مبادرة الإصلاح العربي" عام 2005 ويشرف على عملها مجلس الأعضاء وهيئة تنفيذية.

مبادرة الإصلاح العربي، ديسمبر/كانون الأول 2016

www.arab-reform.net

© 2016 مبادرة الإصلاح العربي تحت رخصة المشاع الإبداعي، اضغط هنا لقراءة الرخصة

contact@arab-reform.net